(الأب "فرونسوا دو فيلاري" ونشاطه التنصيري والعلمي في منطقة الجلفة)

د/ نايلي عبد القادر، جامعة الجلفة

ملخص:

شهدت الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي سنة 1830، هجمات صليبية عنيفة، حيث كانت صفوف رجال الكنيسة الكاثوليكية آنذاك تتقدم صفوف الجنود العسكريين مبتهجة بالفتح الجديد.

لقد قام هؤلاء المنصّرين بما عجزت عنه القوات العسكرية، محاولة القضاء مقومات الوحدة الدينية والروحية التي كانت تمثل عوامل قوة الشعب الجزائري واستمراريته من خلال محاولة تنصير السكان بطرق ووسائل مختلفة. ومن بين من تم إرسالهم إلى منطقة الجلفة "ألآب فرانسوا دوفيلاري"، الذي حل بمنطقة الجلفة سنة 1945 لتنفيذ مشروعه التنصيري إلا أن الحظ لم يحالفه، بحكم أن العقيدة الإسلامية ظلت مرجعا لسكان المنطقة ومعينا لا ينضب على طوال أمد الوجود الاستعماري. الأمر الذي جعله يُغير نشاطه إلى معرفة المنطقة (من حيث طبيعتها، أصول أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ونشاطهم الاقتصادي... الخ). لكن أهم عمل خلد هاته الشخصية، هو اكتشافه لتلك المواقع الأثرية التي من خلالها تم اكتشاف تاريخ المنطقة العريق والذي يعود إلى عصور ما قبل التاريخ...

من هذا المنطلق انصب اهتمامنا لدراسة هذه الشخصية لنبين إلى أي مدى مثّل دوفيلاري صورة حقيقة للأهداف الصليبية لتنصير منطقة الجلفة؟ وما مدى نجاحه أو إخفاقه في مهمته التنصيرية؟ ولماذا انصب اهتمامه على الاكتشافات الأثرية وما هي انعكاساتها على الإرث التاريخي للمنطقة؟

كلمات مفتاحية: (الأب "فرونسوا دو فيلاري" ، النشاط التنصيري والعلمي، منطقة الجلفة)

Abstract:

During the French occupation of Algeria in 1830, Algeria witnessed violent crusades, where the ranks of the Catholic Church progressed in the ranks of soldiers, rejoicing in this new conquest.

These missionaries did what the military forces were unable to do it. They tried to eliminate the components of religious and spiritual unity, which were factors in the strength and continuity of the Algerian people, through trying to evangelize the inhabitants in different ways.

Among the persons who sent to the region of Djelfa, the "father François de Valliret", who settled in the region of Djelfa in 1945 to carry out his missionary project, but he did not not succeeded, because the Islamic faith has been a reference to the inhabitants of that region and an inexhaustible throughout the colonial existence, which led him to change his task to get closer to the knowledge of the region (its nature, the origins of the people and customs and traditions and economic activity ... etc).

But the most his important work that immortalized him in the history is his discovery of archaeological sites through which the history of the ancient region, which dates back to prehistoric times,

From this point of view, we have focused our attention on the study of this character to show how "De Villaret" is a faithful image of the objectives of the Crusaders of the Christianization of the region of Djelfa ?. How successful or failed is it in his mission? And Why is his attention focused on archaeological discoveries and what are their implications for the region's historical heritage?

Keywords: father François de Valliret, Christianization and Scientific Activity, Djelfa Region

مقدمة:

اكتست الحملة الفرنسية على الجزائر صبغة صليبية، تجلت من خلال تصريحات المسئولين الفرنسيين قبل الاحتلال وبعده. فقد كان سقوط الجزائر يمثل سقوط قلعة إسلامية لصالح قيم أخرى مسيحية، فما حدث سنة 1830م لم يكن مجرد احتلال عسكري لدولة قوية أرادت الانتقام، كما ادعت لشرفها المهان في شخص قنصلها دوفال (Duval)، لكنه مخطط استعماري متكامل له جوانب عديدة ورُأى مختلفة. وهذا ما يظهر من خلال الأساليب والوسائل التي حاولت فرنسا من خلالها القضاء على المقومات الروحية والدينية للمجتمع الجزائري، بهدف تجسيد الاستعمار على أرض الواقع وتثبيت دعائمه فتارة يستعينون بالآلات الحربية التدميرية

وذلك بهدم المساجد ومنع التلاميذ والطلبة من الالتحاق بالكتاتيب والمدارس التي كانت مصدر التكوين وتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية، وتارة بممارسة شتى أنواع الضغوطات والقيود على رجال العلم والفقهاء والأئمة والمدرسين الجزائريين، إما بنفيهم أو بقتلهم.

كما كانت فرنسا تقوم بإرسال بعثات علمية واستكشافية بمعية الحملات العسكرية إلى الأرياف والصحاري والجبال الجزائرية، بغرض الاستطلاع ودراسة ومعاينة ثقافة وتركيبة تلك المجتمعات المحافظة، وذلك تحضيرا للتوغل نحوها وتفكيكها، إذ يعتبر المساس بخصائص المجتمع سلاحاً أقوى وأجدى لاقتحامها. وقد دعمت الكنيسة البابوية الإرادة الاستعمارية وساندت السلطة الفرنسية في حركتها التبشيرية في الجزائر، مما جعلها تؤكد على إرسال ممثلين للجمعيات الكاثوليكية مهمتها العمل على تمسيح المجتمع الجزائري..

انطلاقا مما سبق انصب اهتمامي على القيام بدراسة حول أحد الشخصيات البارزة ،التي عرفتها منطقة الجلفة، والتي كان من أهداف قدومها إلى هذه المنطقة تنفيذ المخطط التنصيري الذي سطرته فرنسا من أجل سلخ المجتمع الجزائري عن هويته وانتماءه الحضاري العربي الإسلامي، استكمالا لمشروعها التغريبي، حتى يتسنى لها التحكم فيه، وتسهل السيطرة عليه. ونقصد بدراستنا هذه المدعو فرانسوا دوفيلاري (François de villaret) والذي أطلق عليه سكان المنطقة (الحاج عبد الرحمان).

ومن هنا يمكن طرح الإشكالية التالية إلى أي مدى مثّل دوفيلاري صورة حقيقة للأهداف الصليبية لتنصير منطقة الجلفة؟ وإلى أي مدى يمكننا الحديث عن نجاح أو إخفاق نشاطه التنصيري؟ ولماذا انصب اهتمامه على الاكتشافات الأثرية وما هي انعكاساتها على الإرث التاريخي للمنطقة؟

لمحة تاريخية عن منطقة الجلفة

تقع مدينة الجلفة بالأطلس الصحراوي على بعد 300 كلم جنوب الجزائر العاصمة وهي نقطة التقاء في منتصف الطريق بين الحدود الشرقية والغربية للبلاد.

تسمى مدينة الجلفة (عاصمة الولاية) بعاصمة السهوب، نظرا لمساحتها الشاسعة داخل هذا النطاق ولاحتلالها موقعا متميزا يتوسط منطقة السهوب أو الهضاب العليا، وهي تمثل بصدق التركيب المتكامل لمناطق الجزائر المختلفة، حيث مناخها القاري المتميز بارتفاعها عن سطح البحر بـ 1270 م يجعل منها مكانا مفضلا لدى سكان البادية.

وتشتهر المنطقة بتربية المواشي وأهمها الأغنام ذات الجودة العالية، وبزراعة الحبوب خاصة القمح والشعير. كما أنها تمثل مركزا تجاريا هاما ومنطقة عبور باحتلالها موقعا مميزا وسط الجزائر. كما أنها واكبت حركة التنمية من خلال انتشار الكثير من الصناعات الحديثة والمتنوعة ظهرت جليا فيها بسرعة فائقة... وكذا باحتوائها لقطب جامعي فتي.

كانت منطقة الجلفة، حسب الدراسات الحديثة، وقبل عشرات الملايين من السنوات، عائمة تحت الماء، بدليل اكتشاف مجموعة من الصدفات المتحجرة، التي هي محفوظة ومعروضة بالمتحف المحلي للمدينة(1).

ويرجع تاريخ وجود الإنسان بالمنطقة إلى عصر ما قبل التاريخ فقد تم العثور- منذ بداية القرن العشرين- على نقوش ورسومات صخرية وكتابات ليبية بربرية يعود أقدم تاريخ لهذه الآثار إلى حوالي 9000 سنة قبل الميلاد. هذه الرسومات والنقوشات تتوزع على محطات عدة في الجلفة من أهمها محطة عين الناقة التي تبعد بحوالي 45 كلما جنوب مدينة الجلفة وتزخر برسومات أثرية عديدة لمجموعة حيوانات، مثل الحيرمين (الجاموسين) العتيقين (Les deux Buffles antiques) الضخمين أكبر هذين الرسمين مساحته 219 سم) ، ويوجد بالمحطة أيضا رسم لفيل كبير، ورسم لامرأة ورجل يدعيان: العاشقين الخجولين.. وغيرها ترجع تعمير هاته المنطقة إلى 7000 سنة قبل القرن الأول الميلادي بالنسبة للإيبيباليوتيك و5000 سنة للنيوليتيك، إضافة إلى مناطق أخرى تخفي بقايا أدوات، كما ويوجد بالمنطقة أبعد تاريخ للحضارة القفصية، يحدد بـ: 7350 سنة ق.م (2)

أما وجود القبائل البربرية في حدود منطقة الجلفة فكان قديما، إذ يذكر "الأب فرانسوا دوفيلاري" أن المنطقة وما جاورها كانت تنتمي إلى البربر منذ سنة 1500 قبل الميلاد وحتى سنة 1000 م، وأن هناك شعبا بربريا عرف بالبداوة وكان يسمى "الجيتول(3) اجتمع منذ عهد ما قبل التاريخ من بقايا النيوليتيكيين (العصر الحجري المتأخر أو الحديث) ومن الأقوام التي نزحت من المشرق (من فلسطين أو جنوب اليمن)، ومن سردينيا في الغرب. تدل على ذلك الكتابات الليبية التي اكتشفت في مناطق مثل: وادي حصباية، وصفية بورنان وعين الناقة وصفية البارود. وتدل على ذلك أيضا بعض الأضرحة بأنواعها التي يذكر الأطلس الاركيولوجي وجودها في منطقة الجلفة، في الادريسية وقلتة السطل وجنوب وادي جدي بالقرب من ضاية زخروفة. بالإضافة إلى بعض رسومات الأحصنة و الجمال(4).

ويعتبر البربر بأنهم السكان الأصليون لإفريقيا الشمالية، وتواجدوا في منطقة الجلفة منذ 1500 سنة قبل الميلاد، وتشكلوا من قبائل سنجاس وبني أويرا والأغواط وتنحدر كلها من مغراوة... وهناك مواقع عديدة تشهد بتواجد البربر بمنطقة الجلفة منها:.الكتابات الليبية البربرية على الصخور. القبور على شاكلة تيميليس وبازينا

[5]. آثار قرية بربرية محصنة بالقرب من الجلفة أسفل الطاحونة المائية القديمة، وكذلك آثار أخرى متواجدة بعمورة، عامرة، بني زروال، دمّد، بني حلوان(شرق تعظميت)، الفج وبورديم بواد جدي.

نجت منطقة الجلفة من الغزو الروماني، إلا أن الرومان اضطروا لإقامة حدودا (الليمس[6] النوميدي لكبح وإيقاف غارات الجيتول والمور فشكلوا حصونا موسعة تمتد إلى حوالي 40 كيلومتر، وزيادة على الدور الدفاعي لهاته الحصون فإنها استعملت كقواعد لشن الغارات.

نظرا للضغط الكبير الذي طبقه الجيتول والمور، اضطر الإمبراطور الروماني أنطوان التقي، إلى استدعاء القبائل الجرمانية والذين بدؤوا بالدخول من 144 إلى 152 قبل الميلاد شنوا حربا عرفت بحرب المونس أين تمكنوا من دفع الرحل من الجيتول والمور، وبنوا العديد من القلاع كاستيليوم castellums وتواجدت في المنطقة في المواقع التالية:

آثار حصن دمد castellum demmedi الذي بناه الرومان في 198 ق.م، وهُجر 238 بعد تقوية الحدود. هذا الى جانب وجود آثار على مستوى حمام الشارف محصن بحجارة مصقولة كبيرة. وهناك آثار برج روماني على مساحة تقارب 45 م/40 م، يقع على بعد 2 كيلومتر شمال مدينة الجلفة على الضفة اليمنى لواد ملاح[7].

فر انسوا دوفيلاري (المولد والنشأة):

ولد الأب فرانسوا (François) في 23 نوفمبر عام 1913 ، في انجير (Angers) بفرنسا. - في عام 1935، نشأ وترعرع في أسرة كبيرة ببلدية بواسوني الجبلية والتي تبعد عن المدينة بحوالي 20 كلم. ويعتبر الابن الثاني من مجموع أربعة أولاد... التحق بمدرسة البلدية وعمره لم يتجاوز الخمس سنوات ودرس بها لمدة ستة سنوات، بعد ذلك انتقل إلى مدينة سانشير التي تطل على المحيط الأطلسي.

تحصل على شهادة الباكالوريا في سن السابعة عشر، وبعد عامين من الدراسة الأدبية في السوربون، كان لا يزال تفكيره واهتمامه أكثر بالدخول في مجال الرهينة (بالكنيسة)، وفعلا دخلها من الباب الواسع رغم معارضة جده في بداية الأمر.[8]

وهناك شيئ يحب أن نأخذه بعين الاعتبار وهو أن جده (دو فيلاري) كان جنرالا خلال الحرب العالمية الأولى وقد قال: " إذا أراد فرانسوا أن يصبح كاهنا، فإن عليه أن لا يشعر بأنه مضطر للدخول إلى المدرسة العسكرية - سان سير) لإرضائي، فإن نشاطه ككاهن أكبر من العمل في المجال العسكري!" وهو ما كان يفكر فيه في الواقع. حيث نشأ حفيده (فرانسوا) في معهد ديني (دير) في سانت نازير(St. Nazaire).

وعندا بلغ سن 23 التحق بالخدمة العسكرية بمدينة تور (Tours)، وبعدها مباشرة قرر الدخول إلى المدرسة العسكرية تلبية لوصية جده وتخرج منها برتبة ضابط.

إلا أن جده كان له رأي آخر فيما بعد حيث قال بان فرانسوا سيكون كاهنا ومبشرا، ولكن في مكان آخر، وفي فضاء أوسع (وهو ما كان يرغب فيه فرانسوا) حيث كان تفكيره مرتبط دوما بتحقيق حلمه الذي كان يراوده، وطي المسافات من أجله، لذا كان من ضمن بعثة المبشرين (الأباء الأبيض) الذين توجهوا إلى إفريقيا بعد أن تم تكوينهم لهذا الغرض(9)

ومن بين الرحلات التي قام بها توجهه إلى قرطاج سنة 1941 ثم بعد ذلك الى تبار Thibar (بتونس) سنة 1942م التي أخذ منها فكرا آخر، (وهو الفكر الكهنوتي) وأدي اليمين بأن يصبح راهبا، لذلك وجب عليه الالتزام بشروط الرهبنة.

كما شارك في الحرب العالمية الثانية سنة 1944 وأصيب فيها بجروح، وبعدها عاد إلى تونس سنة 1945 أين كان مدربا للجنود، وكانت رحلاته قد قادته إلى الجزائر ومنها بدأت رحلته نحو الجلفة في سبتمبر 1945 ثم إلى واد سوف سنة 1946 ثم رجع إلى الجلفة سنة 1948، كما توجه نحو غرداية في أفريل 1955، ومنها إلى البيض سنة 1956 وقطن بها لمدة 10 سنوات، ومن هناك إلى بسكرة ثم تقرت عام 1958 لمدة أربعة سنوات، ثم سافر إلى تونس وتعلم العربية هناك. وفي سنة 1962 عاد من جديد إلى الجلفة ليبقى فيها إلى غاية 2005.(10)

وقد ربطته ببعض الشخصيات بالمنطقة روابط صداقة وثيقة من بينهم المدعو مبارك سنة 1962م الذي يذكر بأنه قد تم بينها عدة لقاءات وتلقى منه مساعدات مالية وغذائية كثيرة، وساعده عندما قرر امتلاك بستان زراعي وتوصيله بالماء ووفر له الأسمنت والرمل...الخ لإنشاء قنوات وسد، وكلف أحد الآباء البيض المستقرين بغرداية بتسليمه مبلغا يقدر بخمسة ملايين سنتيم لاستكمال هذا المشروع(11). لذالك كان هناك بعض الأشخاص معجبون به وتربطهم علاقات مادية معه. في حين كان بعضهم لأخر منتبه لتستره وراء الأعمال الخيرية التي كان يقوم بها من أجل الدعوة إلى المسيحية في المنطقة وهؤلاء كانوا يطلقون عليه اسم "عدو الرحمان".

كما كان على اطلاع بعادات وتقاليد أهل المنطقة بحكم اختلاطه بالبدو المنتشرين بنواحي (مسعد) بحكم أنه تعلم اللغة الدارجة وأصبح يفهما جيدا. كما كان يحفظ الكثير من الحكم والأمثال المتداولة بين الأهالي ويستعملها في تخاطبه معهم، وهي من العادات السارية في التخاطب بين مختلف الشعوب العربية خاصة(12).

ومن بين المواصفات التي كان يتصف بها أنه، عندما يتنقل عبر الصحراء، كان يسير ببطء وثبات، بعكس وتيرة البدو الذين يمتازون بالسرعة، والمعروف عنهم بأنه أكبر المشاة في الصحراء. كما كان يرتدي لباسا واسعا من الصوف الأبيض يطلق عليه اسم (قشبية kachabiah)، ولأكثر من ستين عاما كان متشبثا بلحيته.[13]

نشاطه التبشيري:

يذكر السيد بوخلخال السعيد (وهو أحد الشخصيات التي تعرفت على الأب دوفيلاري عن قرب)، أنه كان من قوانين الآباء البيض أن يكون في أي منطقة مبشرين اثنين على الأقل ليقوي أحدهما الأخر عندما يضعف إيمان أحدهما ويدعما بعضهما البعض، ما عدا دوفيلاري الذي سمح له بأن يكون المبشر الوحيد في منطقة الجلفة، وذلك بأمر من الفاتكان، فجاء إليها كمبشر سنة 1945، واستعمل كغيره، من المبشرين، الأعمال الخيرية ليتقرب من الأسر خاصة الفقيرة منها بتقديم مساعدات مادية ليكسب ودهم وثقتهم وضمائرهم، حتى انه أطلق على نفسه اسم (عبد الرحمان؟) ليتقرب من الأسر والمجتمع المسلم البسيط[14].

وكانت تربطه علاقة بالسياح الذين كانوا يأتون إلى المنطقة من حين لأخر فيحضرون له الأدوية والنقود وغيرها، ويقوم هو بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين والمرضى لكسب محبتهم ومودتهم لإدراكه أنهم الفئة التي يمكن الاستفادة منها في نشاطه. بالإضافة إلى الأعمال الإنسانية التي كان يقوم بها بحيث عندما يرى أحد عاجزا عن قطع الطريق أو ساقط على الأرض يسارع لمساعدته وإسعافه ليبين للناس في الظاهر انه رجل صالح وأنه لم يأت إلا لمساعدتهم في ظروفهم هذه. لهذا كان بعضهم معجب بأفعاله النبيلة التي يعتقدون أنها فعلا خدمة إنسانية تخدم مصالحهم، ولم يعرفوا أن القصد منها هو محاولة إبعادهم عن دينهم وجرهم نحو الديانة المسيحية.

ولم يكن أبدا يقول انه ضد الإسلام، لكنه كان يجتهد في نشر دينه قدر المستطاع. ويُروى أنه في أحد الأيام كان مع جماعة في الصحراء، وكانوا يعتقدون بأنه إماما نظرا لهيئته وهندامه وحسن خلقه، ولم يكونوا يعرفون بأنه مسيحي، فعندما حان موعد صلاة العصر طلبوا منه أن يصلي بهم فأخبرهم بأنه ليس على دينهم.

وهناك رواية أخرى يرويها السيد "شتوح عباس" (من الذين عرفوا الشيخ عن قرب وتعاملوا معه) مفادها أنه كان شديد التمسك بدينه رغم معاشرته للمسلمين طوال هذه المدة التي أمضاها في المنطقة والدليل على ذلك ، كما يقول: " أنه في يوم من الأيام كنا مجتمعين وكان دوفيلاري معنا نتبادل أطراف الحديث، وكان موضوع حديثنا يدور حول الأنبياء: موسى، عيسى، ابراهيم ...عليهم السلام. وبينما كنا في أشد النقاش، ناديته بعبد الرحمان، كما كانوا يسمونه وسألته: " لماذا الأنبياء كلهم نحن نقول عليهم السلام؟ ولماذا عندما نقولوا على محمد صل الله

عليه وسلم، (عليه الصلاة والسلام)؟ لماذا لا تُجبر بخاطرنا مرة وتقول معنا على محمد (عليه الصلاة والسلام)، ونحن لماذا نقول على جدك (عيسى) عليه السلام. فاستغرب ذلك وأجابني: أتريد أن تدخلني في الإسلام بهذه السرعة.[15]

ويمكننا القول أنه عندما اصطدم بحقيقة المجتمع وتركيبته القوية واطّلع على العمق الديني والتاريخي والاجتماعي للمجتمع الجلفاوي، وجد أن الباب مسدودا أمام نشاطه التنصيري. ودليلنا في ما يثبت فشله، قصته مع عائلة بمنطقة عين الإبل (جنوب مدينة الجلفة) حيث يروي صاحبها بأنه كانت توجد بعين الإبل عائلة فقيرة، ورب البيت بدون عمل، واحد أبناء الأسرة يعاني من مرض خطير، فاستغل "الأب دو فيلاري" الفرصة، ولو أن مثل حالة هذه العائلة الفقيرة يوجد الكثير، ونزل عندهم ضيفا فرحبت الأسرة به وبقي هناك مدة شهرين. وكان دائما يضايقهما بسؤاله حول مصدر المال الذي يتحصلون عليه، وبما أن الإسلام، يفضل عدم الكشف عن الصدقات، عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (...ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)، مما يدل على عدم جواز التشهير بالصدقات لتفادي الرياء ومضاعفة الأجر عند الله. لذا كانت هذه العائلة لا تبوح بمصدر تلك الصدقات التي تأتيها من المحسنين. وبالرغم أن الزوجة والزوج كانا أميان، فقد شعرا بأنه يريد استدراجهم للتحول إلى الديانة المسيحية، فأتته الزوجة ذات يوم فنادته قائلة له: الحاج عبد الرحمن، أنت إنسان لطيف جداً. وكريم، وتحب الفقراء. لكن ينقصك شيء واحد فقط.

فقال لها: أود تصحيحه يا سيدتي. ما هو؟

فقالت له: أن تعتنق الإسلام. ومذ ذاك لم يضع الحاج عبد الرحمن قدمه في هذه العائلة[16]

نشاطه العلمي:

عندما تيقن أنه فشل في مهمته التنصيرية، غير نشاطه نحو اكتشاف المنطقة وأهلها وتاريخها.

فكان باحثا ولديه رغبة واهتمام كبيرين لمعرفة طبيعة المنطقة وأصول سكانها ونشاطاتهم المختلفة وأحداثها التاريخية، رغم أنه لم يكن لديه تكوين في هذا الميدان، إلا أنه بحث في الكتب التي توفرت لديه (كمقدمة ابن خلدون ، وكتابات الإمام الشيخ مسعودي عطية ، وكتابات الفرنسيين أمثال أرنو Arnaud الذي كان بالجلفة سنة 1860 وكتب عنها الكثير، وكتابات (ماري مونج) الذي كان هو الأخر في المنطقة سنة 1845 وكتب عن أولاد نايل، وكذا كتابات الجنرال يوسف الذي بنى مدينة الجلفة سنة 1862 كما ساعدته أيضا، في تأليف كتاباته عن المنطقة، السيدة (إكول بريسوند) وهي زوجة أحد الباحثين الذين تواجدوا بالمنطقة.[17]

كما أنه كان يتلقى من الأرشيف الفرنسي وثائق تخص المنطقة (بعث بها إليه مراسل خاص). واهتمامه هذا جعله يطلع على الأحداث التي عرفتها المنطقة عبر مختلف الأزمنة. ويكتشف الكثير من الآثار والرسوم الحجرية، واكتشف العديد منها وعرّفها واعتنى بها.[18]

وقد أصبح شديد الارتباط بالمنطقة، من ذلك ما رواه السيد بوخلخال السعيد أنه قال: " في وقت من الأوقات اشتاقت إليه إبنة أخته فطلبت منه المجيء إلى فرنسا لقضاء أسبوع عندها، وكنت حينها رئيسا للبلدية، وكان ذلك بين سنتي 1991-1992، فجاء إليّ وأخبرني بأنه ذاهب إلى فرنسا وطلب مني أنه في حالة ما إذا لم يسمحوا له بالعودة أن أُرسل إليهم رسالة أُخبرهم فيها أننا مازلنا بحاجة إليه في المنطقة، لكنه عاد دون عراقيل تذكر[19].

اكتشافاته وإنجازاته:

كانت جولاته عبر الكثبان الرملية، وتنقله بين الوديان والتلال والكهوف أدت به إلى اكتشاف الثروات القديمة التي تزخر بها البلاد قبل 4000 سنة، حيث عاش بها رجال كانت حياتهم تقوم على الصيد ويستلهمون قوتهم من الطبيعة، وقد رسموا ونقشوا اللوحات الجدارية على جدران كهوفهم.

فما هي الرسالة التي كانوا يريدون نقلها؟ ما هي الآمال، وما هي الرغبات؟ ربما كانوا يريدون الاحتفال ببعض الانتصارات، والتمكن من صيد ناجح، واستحضار بعض النوبات أو الحصول على بعض الحماية؟ فرانسوا دو فيلاري يتكشف هذا الكنز وهذه الذخيرة ويدل عليها المتخصصين في علم الآثار لفك خباياها وأسرارها.[20]

ويذكر من عاصره واقتفى أثره، بأنه كان يسافر بحزم وإقدام، في مهمة لا نعرف متى سيعود منها، ولا في أي مكان هو، فيعود ومعه بعض الحشرات كالبراغيث أو البق، والتي هي من ذكريات الليالي التي قضاها تحت الخيمة، حيث الماء (عملة نادرة يصعب توفرها بذات المكان). هذا إضافة الى الثقوب والجحور المنتشرة بكثرة، والتي بدون شك تسكنها الأفاعي والعقارب.. وغيرها . ويروي زملاؤه، باستغراب، كيف عاد من هذه المهمة الصعبة (اللهم إلا إذا كان هناك في العمر بقية).

كان فرانسوا يتنقل من مخيم إلى آخر. وكان معروفا لدى العام والخاص، ففي أي مكان يحل به يستقبل كصديق، حيث يعتبر من الناس الذين يخشون الله وتغمر قلوبهم الرأفة والرحمة في خيمة أو حول منزل متواضع، كان يروي الأخبار والحكايات(الماضية والحاضرة) .كما يستمع إلى أراء مضيفيه كمن يتأمل في صمت[21].

المو اقع الأثرية التي اكتشفها دوفيلاري:

ومن بين الاكتشافات التي اهتدى إليها دوفيلاري نذكر:

محطة حجر سيدي بوبكر: اكتشفت سنة 1965 من قبل فرانسوا دو فيلاري. وهذه المحطة قريبة من مسعد، و تحمل عدة نقوشات صخرية من جهاتها المختلفة .. مثل الكبش الذي تعلوه شبه كرة فوق رأسه Le bélier à (sphéroïde)، وعلى يمينه نعجة لا تظهر فوق رأسها شبه الكرة (Brebis sans sphéroïde).

محطة حصباية: اكتشفت هذه المحطة في عملية عسكرية للفرنسيين أثناء الاحتلال، و أعيد اكتشافها سنة 1964 من قبل دوفيلاري وبلانشار. تبعد بحوالي 75 كلما عن مدينة الجلفة جنوبا، حيث نجد نقوشا صخرية لفيلة وأبقار ونعامات و أرانب ورسما لإنسان.

وهنا تظهر ملامح العصر النيوليتي (العصر الحجري الحديث) الذي بدأ في الشرق الأوسط منذ 7000 سنة قبل الميلاد، مما دل على وجود الإنسان في المنطقة خلال هذا العصر.

محطة خنق الهلال: اكتشفها سنة 1966 براتفيال ودوفيلاري. محطة قريبة من عين الإبل، فيها رسم لثور (حيرم) عتيق ، وكبش تعلوه شبه كرة. ويوجد رسم لأسد كبير لا يظهر ذيله، ويتجه بوجهه إلى اليمين..

محطة عمورة : تقع بمنطقة مسعد، وقد اكتشفت سنة 1965. وفيها رسم لفيلين.

محطة ثنية المزاب: تبعد بحوالي 45 كلما جنوب الجلفة. يعود تاريخ رسومها إلى 6000 سنة قبل الميلاد. نجد في صخورها الصفراء رسومات غامضة صعبة الفهم، ورسما لفيل ضخم وآخر صغير، ولشخص يظهر شعره بهيئة غريبة.

محطة زكار: اكتشفت هذه المحطة سنة 1907 من قبل السيد : ماقني القاضي في الجلفة أنذاك. فيها رسوم جميلة و دقيقة لظبي إفريقي يجثو على ركبتيه، بينما يلتهمه أسد، مع أن الأسد يبدو أقل شكلا .. وفيها رسوم لنعامة ولوحيد القرن..

محطة صفية بورنان: اكتشفت سنة 1954 من قبل بيلان . تقع بين مسعد والمجبارة. وفيها رسومات لفيل وكبش ونعامات وغزال ، وكذا مجموعة من الخيول ... الخ[22].

ومن الأعمال التي تخلد ذكراه في المنطقة أنه بعد عودته إلى الجلفة سنة 1962 شارك في انجاز معهد التكوين المهني بمسعد وذلك بين سنتي 1963-1964 وفق مخطط من تصميمه الشخصي.

وفي سنة 1963 أنشأ بيتا للشباب، كما كان عضوا في الديوان المحلي للسياحة إلى جانب أعضاء ناشطين منهم: السعيد بوخلال، شويع عبد القادر، هيلوف عبد القادر، مسعودي يحي، حسان البشير ... وغيرهم. والذي كان يترأسه "دلولة بلعباس". وكانت مهمته استقبال السياح وتطوير السياحة بالمنطقة.

ومن بين الانجازات التي ساهم فيها، إنشاء المتحف البلدي الذي كان عبارة عن ثكنة عسكرية حُولت إلى متحف، يحتوي على العديد من القطع الأثرية والتراثية والتي تعد ثروة علمية مهمة للباحثين والدارسين والزوار، كما يشتمل على معلومات لها علاقة بالحضارات القديمة التي شهدتها المنطقة منذ فترة ما قبل التأريخ وكذا الفترة الإسلامية(23).

ويعتبر كتابه الذي ألفه عن المنطقة تحت عنوان: (السهوب عبر العهود: معالم تاريخ الجلفة) من المصادر الهامة التي تُؤرّخ لماضي المنطقة، وقد قسمه الى ثلاثة أقسام:

- قبل ألاد نايل Avant les Ouled Nail
- أولاد نايل Les Ouled Nail
- قصص شعبية Récits populaires

كما اهتم بدراسة النباتات وألف كتابا بعنوان (نباتات الجزائر) وهو وثيقة غنية عن الغطاء النباتي في الجزائر، كما شرع في إنجاز قاموس " عربي – فرنسي" لا يُعرف عن مصيره شيء (24).

واعترافا بمكانة هذه الشخصية وتقديرا لمجهوداته التي بذلها في سبيل البحث والتنقيب في الموروث التاريخي لمنطقة الجلفة والاحتفاظ والاعتناء به، قام المخرج الجزائري "محمد الشريف بقة" بانجاز شريط وثائقي تحت عنوان:" ***لقاء في الجلفة.. رجلان مختلفان.. وحياتان مشتركتان"***

وقد تم عرضه بقاعة الموقار (بالجزائر العاصمة)، الذي يصور نشوء علاقة صداقة بين رجل الدين المسيحي "فرنسوا دو فيلاري"، القادم إلى الجزائر ضمن أعضاء الحملة التبشيرية الفرنسية عام 1935، و"الحاج دلولة بلعباس"، ابن قبيلة أولاد نايل، محاولا إعطاء مفهوم جديد لمعنى الصداقة، وتوسيع دائرة اللقاء، ليس فقط بين الرجلين، أو بين الثنائي وسكان الجلفة، بل بينهما وبين سكان البدو الرحل أيضا، وحاول المخرج

من خلال هذا العمل إبراز قيم التسامح والحب في نفسية الإنسان الجزائري، الذي استطاع أن يصادق "فرنسوا دوفيلاري" الذي أطلق عليه اسم "المرابط عبد الرحمان"، بعدما غير هذا اهتمامه الأول من التبشير الديني وإخراج الناس من معتقداتهم، إلى البحث عن آثار المنطقة ووضعها في متحف يثمنها ويحافظ عليها من الضياع.

ويعرض الفيلم الوثائقي ذكريات أشخاص من أهل الجلفة، ومشاهد للمتحف المُدشن بالمدينة في بناية كانت أيام الاستعمار الفرنسي مركز تعذيب، وقد تم إنشاء المتحف هناك بالذات تحقيقا لرغبة الشيخ "دلولة بلعباس" الذي طلب من السلطات المحلية أن تمنحه المركز الذي سبق وأن عُذب فيه هو شخصيا، ليؤسس فيه متحفا للآثار.

وفي هذا الصدد، يقول المخرج متحدثا عن فيلمه: " عملت في التلفزيون إبان الثمانينيات، وأردت أيامها أن أنجز فلما وثائقيا عن جبل الملح في الجلفة، وهناك التقيت بالحاج دلولة والمرابط عبد الرحمان، وعايشت تجربة متميزة أردت أن أنجزها في فلم وثائقي".

ويضيف: " كان اللقاء الأول سنة 1986، عدت بعد سنوات لأجسد الفكرة في مشروع وثائقي قائم على شهادات وحقائق من الواقع، ونتيجة لعراقيل الإنتاج في الجزائر وما عاشته البلاد في تلك السنوات، ظل العمل حبرا على الورق إلى غاية 2005، أين صورت بعضا من مشاهد الفيلم في فرنسا والجلفة، لأكمل التصوير في عام 2011، ولكن هذه المرة بدون مشاركة الأب فرنسوا دوفيلاري، الذي توفي في 2006 بعد أن غادر الجلفة إلى لفرنسا نتيجة تدهور حالته الصحية".

وتصبح الجلفة من خلال هذا العمل (المدعم من قبل وزارة الثقافة) مكانا يجمع رجلين من حياتين مختلفتين، وشواهد تاريخية كثيرة تؤرخ للحاضر وتشير إلى المستقبل في آن واحد، كانت بعضا من بقايا التاريخ لحضارات عريقة مرت على بلاد أولاد سيدي نايل، احتضنتها جبال الأطلس الصحراوي قرونا عدة، فجمع منها الصديقان ما استطاعا. وبعد الاستقلال استطاعا وبإمكانات بسيطة أن ينجزا متحفا لخص بعض الجوانب لحياة ممتدة من آلاف السنين.

وتم التركيز على شخصية "الأب دوفيلاري" حتى يقترب العمل من ال"بوتري"، كما تتحدث الشخصيتان الرئيستان عن تجربتهما في جمع الآثار، وفي التطرق إلى عادات معينة للأهالي، والى رؤى أخرى لباحثة في التاريخ، سبق ذكرها، كانت قد رافقت الرجلين في عمليات التنقيب.

وعلى مدى 52 دقيقة، من المشاهد وموسيقى الناي والشعر الشعبي المشهور في مدينة أولاد نايل، ومقاطع من رقصة الخيل، استطاع بشكل أو بآخر أن يربط إحساس مواطني الجلفة مع بعض من النقوش الصخرية التي تمثل ثقافة المناطق السهبية[25].

وفاته:

بناء على أوامر رؤساءه (الآباء البيض) فقد اضطر الى مغادرة الجلفة والجزائر نهائيا الى فرنسا، وقبل مغادرته الجلفة أُقيم له حفلا لوداعه بدار الثقافة لولاية الجلفة، وعندما غادر الجزائر أخبر الآباء البيض أنهم لا يستطيعون تنصير الشعب الجزائري لأن إسلامه صلب وأنه شعب متمسك بدينه وبرسوله. وتوفي بإقامة الآباء البيض ببيار (Billere) بفرنسا يوم 25 جويلية 2006 عن عمر ناهز 93 سنة[26].

خلاصة:

مما سبق ذكره، حول هذه الشخصية المتميزة، يجدر بنا التنويه بما قام به "فرانسوا دوفيلاري" من مجهودات جبارة من خلال اكتشافاته لمواقع أثرية أزاحت الغبار عن ماض لتاريخ عريق يؤرخ لفترة زمنية تبرهن على تواجد الإنسان القديم بالمنطقة ونشاطاته المختلفة، إلى جانب الحيوانات البرية التي كانت تعيش بها، بحسب ما توضحه تلك النقوش البارزة على الصخور والتي يعود فيها الفضل إلى هذه الشخصية التي كرست جل وقتها في البحث والتنقيب عن هذه الدلائل التاريخية العريقة.

ومن جهة أخر يتضح، من خلال هذه الدراسة، مدى تمسك الجزائريين بعقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم التي ورثوها عن الأجداد، مما جعل حركة التنصير والدعوة إلى المسيحية تفشل ولم تكلل بالنجاح، وظلّ الإسلام مرجعا أساسيا للسكان ومعينا لا ينضب نهلت منه الأجيال، طوال أمد الوجود الاستعماري، كما كان المحفز الذي استلهمت منه روح المقاومة وعوامل القوة والوحدة التي كانت سببا في دحر جيوش التنصير مع جيوش الاستعمار.

كما كان للعلاقة الودية التي ربطت الأهالي، بهذه الشخصية المسيحية، دليل على التسامح والتعايش الذي يُبرهن على مدى سمو روح العقيدة الإسلامية، التي لا تميز بين البشر مهما اختلفت عقيدتهم وألوانهم وألسنتهم، مادام الطرفان يحترمان كلاهما الآخر، عملا بتعاليم ديننا الحنيف القائم على الحرية والأخوة والتسامح، وهو ما لمسه دوفيلاري من قبل السكان فعاش بينهم محتفظا بعقيدته دون إزعاج، واعترف بمدى تمسك أهالي

المنطقة بدينهم فتركهم وشأنهم، واتجه إلى النشاط العلمي والثقافي الذي احتفظ له التاريخ بما قدمه من مجهودات حفظت الذاكرة التاريخية للمنطقة من خلال ما تقدم ذكره.

التهميش :

1- للمزيد انظر الرابط التالي: https://www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=1393911

2- Grebenhart D., **Aïn Naga** : « **Capsien et Néolithique** des environs de Messad. » Libyca 17, **1969**, pp. 93-97.

3- الجيتول:أو الجيتوليون أو كما تصفهم العرب بني جوالة هم بربر، قبائل نازحة من ليبيا. منهم القيطوليين الذين وصلت سفنهم إلى إنجلترا،كما تعتبر قبائل زناتة من الجيتول. اشتهر الجيتوليون في تاريخ المغرب القديم بكونهم رعاة نموذجيين، حتى شبههم سترابون بالعرب البدو، ووصف خيولهم وأبقارهم بأنها كثيرة العدد. كما أنهم ألفوا الانتقال نحو الشمال عبر العصور عندما تحل مواسم الرعي في بلاد التل. كما يستعمل مصطلح الجيتول لوصف جنوب الجزائر في عصر روما القديمة. عد الى الرابط التالي: https://www.marefa.org/جيتول

4-De Villaret (François), Siècles de steppe, Jalons pour l'histoire de Djelfa, (Centre de Documentation Saharienne, 1995 Ghardaia (Algérie).

5- **مقابر تيملوس**: (Tumulus): بناء حجري مخروطي الشكل فوق قبور قديمة وهي عبارة عن كومة من الحجر والتراب بقاعة عادة دائرية مختلفة الأحجام حيث يبلغ قطرها بين 5-15 م والقطر المتوسط بين 5-6 أمتار وتحاط هذه القبور في بعض الأحيان بثابت أو اثنين من الحجارة خصص لدعم القبر).

عرفت مقابر التيميليس باسم "بازينة Bazina" البربرية وباسم رجم أو كركور باللغة العربية أما الهيكل فيوضع عادة تحت القبر في حفرة عميقة محمية بأربع أو خمس بلاطات أربع بلاطات جانبية والخامسة تغطي المنطقة العلوية، وفي بعض الأحيان تزود جدران الحفرة بكساء من الثوابت حجرية صغيرة. تأتي قمة هذه القبور منخفضة وهذا ناتج عن عملية رس الكومة حتى لا تخرج رائحة تعفن الجثث، تكثر هذه النوعية من القبور في

صور الغزلان، قصر البخاري والحضنة. أنظر في هذا الشأن الرابط التالي: https://www.djazairess.com/djelfa/134

6- الليمس (Limes): هوالأنظمة العسكرية والدفاعية والاقتصادية التي شكلت حزاما واقيا للامبراطورية الرومانية في وجه الثورات وتثبيتا لهيمنة روما الاستعمارية) للمزيد عد إلى موسوعة ويكيبيديا : https://fr.wikipedia.org/wiki/Limes

7- Voir le site suivant : https://www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=1393911

8- **صابري رقية وبوهالي عاشورة**، رواد الحركة التبشيرية في الجزائر(لافيجري و دوفيلاري أنموذجا)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة زيان عاشور الجلفة 2015، ص71.

9- Voir le site suivant : http://peresblancs.org/devillaret.htm

10- De Villaret François, Op.Cit.

11- صابري رقية وبوهالي عاشورة ، نفس المرجع، ص 79.

12-نفسه، ص.ص 73-74.

13- http://peresblancs.org/devillaret.htm

14- صابري رقية وبوهالي عاشورة ، نفس المرجع، ص 73.

15- نفسه، ص 75.

16-HARRATTI , Un missionnaire en Algerie. Publié Le 15 octobre 2006 sur le site suivant : https://www.yabiladi.com/forum/missionnaire-algerie-1-1426043.html

17- انظر في هذا الشأن ما كتبه أرنو Arnaud ضمن المجلة الإفريقية في الأعداد: 8-10-16-17، ومونجان Mangin في العددين: 37 , 38.

18- رواد الحركة التبشيرية في الجزائر، المرجع السابق، ص 76.

19- نفسه، ص 74.

20-Voir le site suivant : http://peresblancs.org/devillaret.htm

21- Ibid.

22- De Villaret François, Op.Cit.

23- رواد الحركة التبشيرية في الجزائر، نفس المرجع، ص 82.

24- رواد الحركة التبشيرية في الجزائر، المرجع السابق، ص ص 71-72.

25- بقلم : خالدة مختار بوريجي ضمن الموقع التالي: http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=17738

26- رواد الحركة التبشيرية في الجزائر، المرجع السابق، ص ص 71-75.